قراءة نقدية سيكولوجية

لمعلقة امرى القيس

د/ حمد النيل محمد الحسن ابراهيم*

ملخص البحث

أثرت بعض المؤثرات النفسية على شخصية الشاعر امرئ القيس فكان تأثيرها بيناً في شعره لا سيما معلقته، ولعل أبرز تلك المؤثرات في حياته مؤثران، أولهما: نفيه وهو شابٌ صغير، فقد نفاه أبوه الذي كان ملكاً على مملكة كندة وذلك لما لم يرعو عن غيه وانصرافه إلى اللهو والمجون، ففارق نعيم البلاط ليعيش في بؤس الصحراء. فكان تأثير ذلك في معلقته ماثلاً في عاطفة الحزن التي تجتاحها، وكذلك إحساسه بالإذلال وشعوره بالندم، ومن ثم محاولة التماسه العزاء لنفسه بعدة طرق منها ما يسميه علماء النفس بالتعويض ومنها الإسقاط ومنها أيضاً الهروب.

ثاني المؤثرات في حياته ما روي عنه أنه كان مبغضاً لدى النساء لصفات خَلقية وخُلقية، فكان تأثير ذلك في معلقته ماثلاً في إكثاره من شعر الغزل موظفاً له أكثر من نصف أبيات القصيدة، على نحو يظهر تعلق النساء به حتى يخفي الحقيقة الماثلة في بغضهن له على نحو ما يعرف بالتعويض أيضاً.

مصطلحات سيكولوجية وردت بالبحث:

الإسقاط: وهو كما يعرفه د. محمد السيد عبد الرحمن بأنه (ميكانزم لا شعوري يخفي دوافع خطيرة حيث ينبذ الشخص عن ذاته بعض الصفات والمشاعر والرغبات وحتى بعض الموضوعات التي لا يحتملها ولا يستطيع مواجهتها

---

*أستاذ مشارك بجامعة الخرطوم كلية الاداب

ويلصقها بأشياء وأناس آخرين، فالبخيل يصف الناس بالبخل، واللص يصف الناس بأنهم لصوص، والزاني يشك دائماً في سلوك زوجته).[1] وكذلك يعرفه د. حلمي المليجي بأنه (حياةٌ دفاعيةٌ لا شعوريةٌ وهي في جوهرها صورة من خداع النفس حيث ينسب المرء أفكاره ورغباته الخاصة غير المقبولة ونقائصه للآخرين وقد يؤدي هذا إلى التخلص من بعض مشاعر الذنب وخفض التوتر الناجم). [2]

التعويض: وهو كما يقول عنه د. حلمي المليجي: (يرتبط التعويض عادة بمشاعر النقص، فالشعور الناجم عن الفشل يدفع الفرد إلى عمل شيءٍ من أجل تعويض الخسارة التي لحقت به). [3]

الإحباط: عرفه د.هاشم جاسم بأنه شعورٌ بالضيق أو الغضب والتوترات أو التأزم النفسي ينشأ عن إحساس المرء بالفشل في تحقيق هدفٍ ما، أو في إرضاء دوافعه، أو في إشباع حاجاته أو حل مشكلاته[4].

رد الفعل:يقول د. هاشم جاسم إن تكوين رد الفعل عبارة عن عملية استبدال رد الفعل الذي يتولد عنه القلق برد فعل معاكس، حيث يحاول الفرد كبت مشاعره غير المرغوب فيها والتي يلاحظها في ذاته بمساعدة آلية تكوين رد الفعل.إنها عملية إخفاء دافع معين بالتعبير المضاد له. [5]

المؤثرات النفسية: هي المواقف الصراعية المختلفة سواء كانت أسبابها تعود إلى الشخص ذاته أو المجتمع؛ فتجعله يعيش حالةً من الإحباط أو التوتر، أو القلق، وعدم الاتزان.مما يدفعه إلى انتهاج أساليب دفاعية مختلفة للتغلب على تلك الحالة. [6]

الأساليب الدفاعية: تكييف شعوري أو غير شعوري ينشأ من تعرض الإنسان للمؤثرات النفسية. [7]

المقدمة:

تعد المعلقات مصدراً مهماً من مصادر الشعر الجاهلي, وقد دار الخلاف بين مؤرخي الأدب ودارسيه حول سبب تسميتها بهذا الاسم، وكذلك حول عددها وشعرائها وصحة خبر تعليقها على جدار الكعبة. (٨) ومن بين هذه المعلقات حظيت معلقة الشاعر امرىء القيس باهتمام الدارسين لأنها أولى هذه المعلقات زمنياً، إضافة إلى أن شاعرها يعد من أوائل شعراء العرب في الجاهلية وقد كان له فضل السبق إلى عدة معانٍ في الشعر العربي، حتى لقبه الأصمعي بـ (الفاتح لأبواب المعاني). [٩] كما أورد ابن سلام قول الفرزدق بأن امرأ القيس أشعر الشعراء. [١٠] وكذلك أورد أبو الفرج الأصفهاني أنه أحسن الناس ابتداءً في الجاهلية. [١١]

لعله من العسير أن تدرس معلقة الشاعر امرىء القيس دراسةً أدبيةً دقيقةً، وأن تحلل تحليلاً مقنعاً دون الوقوف على شخصية ذلك الشاعر أولاً، و تحليلها تحليلاً نفسياً بالوقوف على أهم المؤثرات النفسية فيها؛ وكما يقول الدكتور هاشم جاسم: إن حياة الفرد مليئةٌ بالمواقف الصراعية المختلفة. [١٢] وبمعرفة تلك المؤثرات ربما يهتدي الباحث إلى سبر أغوار شعر امرئ القيس، لاسيما هذه المعلقة التي بلغت جملة أبياتها حوالي الثمانين بيتاً كما وردت في شرح الزوزني، وقد أتاح فيها الشاعر امرؤ القيس لشعر الغزل ما يزيد عن نصف أبياتها، أي حوالي ثلاثة وأربعين بيتاً ثم وصف فرسه في حوالي ثمانية عشر بيتاً، ووصف ذئباً وناجى الليل في بضعة أبيات، ثم ختمها بوصف البرقَ والمطر في اثني عشر بيتاً.

المبحث الأول: المؤثرات في حياة امرئ القيس:

بالرجوع إلى شخصية هذا الشاعر لعل أبرز المؤثرات النفسية في شخصيته ما ورد في كتب الأخبار من أن أباه (حجراً) كان ملكاً على بني أسد في مملكة كندة في العصر الجاهلي التي موطنها إقليم نجد وسط الجزيرة العربية، وكان معظم رعاياه من بني أسد وغطفان، وأنه عندما رأى من ابنه امرىء القيس ما لا يحب نفاه من مملكته وهو ابن عشرين سنة أو تزيد قليلاً، وعن سبب نفيه يقول ابن قتيبة ت ٢٧٦هـ: (وكان امرؤ القيس طرده أبوه لما صنع في الشعر بفاطمة ما صنع وكان لها عاشقاً فطلبها زماناً فلم يصل إليها وكان يطلب منه غرة حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان فقال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فلما بلغ ذلك حجراً أباه دعا مولىً له يقال له ربيعة فقال له اقتل امرأ القيس وائتني بعينيه.فذبح جؤذراً فأتاه بعينيه فندم حجر على ذلك. فقال: أبيت اللعن أني لم أقتله. قال فأتني به.......فرده إلى أبيه فنهاه عن قول الشعر. ثم إنه قال:

ألا أنعَم صباحاً أيها الطلل البالي

فبلغ ذلك أباه فطرده).[(١٣)] أي أنه يرى أن أباه طرده بعد نظمه هذه المعلقة إلا أن ابن رشيق القيرواني ت٤٥٦هـ نفى أن يكون أبوه قد نفاه لأجل أنه نظم الشعر، وأورد سبباً آخر لنفيه يقول: (وقد حُكِي أن امرأ القيس نفاه أبوه لما قال الشعر، وغفل أكثر الناس عن السبب، وذلك أنه كان خليعاً، متهتكاً، شبب بنساء أبيه، وبدا بهذا الشر العظيم، واشتغل بالخمر والزنا، عن الملك والرياسة، فكان إليه من أبيه ما كان، ليس من جهة الشعر لكن من جهة الغي والبطالة، فهذه العلة وقد جازت كثيراً من الناس ومرت عليهم صفحاً).[(١٤)] وكأنه بقوله (حُكِي) يشير إلى قول ابن قتيبة السابق ليفنده، ولعل ما أورده من سبب هو الأقرب إلى الصحة لعدة أمور،

أولها أن ما حكاه الشاعر نفسه في المعلقة يؤيد القول بأنه نظمها بعد نفيه وليس قبله، ومن ذلك ما حكاه عن الذئب، وعن الليل وهمومه، وعن قربة الأقوام التي حملها على كاهله، فكل هذه الموضوعات في القصيدة أقرب إلى حياته في منفاه في الصحراء. وثانيها أن ما أورده ابن رشيق أقرب إلى الواقع مما حكاه ابن قتيبة إذ لا يتوقع أن يأمر الملك أحد مواليه بقتل ابنه لمجرد تغزله بابنة عمه كما حكى ابن قتيبة، فالعقوبة هنا لا تتناسب مع الذنب بل الأقرب إلى الواقع أن ينفيه أبوه لتغزله بنسائه، كما حكى ابن رشيق ويكون على ذلك أنه نظم المعلقة بعد أن نفاه والده كما يبدو ذلك جلياً من دراسة النص.

ترك الشاعر امرؤ القيس بلاط الملك واتجه إلى الصحراء الموحشة ليتخذها مقاماً له مع صعاليكها الذين ألفوا خشونة العيش فيها وخطورته رغم صغر سنه، يشقى فيها أحياناً ويسعد فيها أحياناً أخرى بما تتيحه له من التحرر من كل القيود الاجتماعية، وبما تتيحه له من التفرغ للهو والمجون اللذين شغف بهما، لولا أن نفسه ربما لم تكن تتركه يمضي إلى سبيله في بحثه عن المتعة بل تكدر صفوه أحياناً بتأنيبها له على تفريطه في ذلك العيش الرغد المحترم في كنف الملك، وما كان سيناله من تبجيل وتقدير وتعظيم وإجلال لولا اتباعه الهوى وإفراطه فيه حتى أصبح يعرف بين القوم بـ (الملك الضليل) وربما كان هو على علم ومسمع بهذه التسمية الغريبة، وربما كانت نفسه تراوده أن يثوب إلى رشده فيرجع عن ضلالته وعمايته إلى حياة الملك والرفاهية، ولذا صار الشاعر متجاذباً ومتأرجحاً بين هاتين النزعتين النقيضتين: نزعة الهوى، ونزعة العقل وما يسببه هذا التنازع من حزن حيناً، وإحساس بالذلة حيناً آخر.

وربما كان من المؤثرات القوية أيضاً في شخصية هذا الشاعر والتي لها حضور كثيف في شعره، ما حكته عنه كتب الأخبار من أنه رغم ما عرف عنه من إفراطه في محبة اللهو مع النساء إلا أنه كان مبغضاً لديهن لصفات

خَلقية وأخرى خُلقية اتصف بها أورد ابن قتيبة: (وكان امرؤ القيس جميلاً وسيماً ومع جماله وحسنه مُفَرَّكاً لا تريده النساء إذا جربنه.وقال لامرأة تزوجها: ما يكره النساء مني؟ قالت: يكرهن منك إنك ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة.وسأل أخرى من مثل ذلك فقالت يكرهن منك انك إذا عرقت فحت بريح كلب، فقال أنت صدقتني. إن أهلي أرضعوني بلبن كلبة، ولم تصبر عليه إلا امرأةٌ من كندة يقال لها هند). (١٥) ولعل وراء هذا السبب يكمن السر في زهد زوجه أم جُنْدَب فيه وحكمها بتفوق علقمة بن عبدة عليه في الشعر عندما تحاكما إليها، مما جعل زوجها امرؤ القيس يحنق عليها فيطلقها لمجرد حكمها بتفوق الآخر عليه. ثم أنها ارتضت الزواج من خصمه علقمة بعد ذلك فلقب بالفحل لذات السبب كما ورد في أحد الأقوال التي تفسر تلقيبه بهذا اللقب.

هذان الملمحان المهمان والمؤثران في شخصية امرىء القيس ربما كانا بمثابة المفتاح لفهم كل شعره، معنىً، ولفظاً، وعاطفةً، وخيالاً، فبتتبعهما والاهتداء بنورهما ربما يصل الدارس إلى أغوار شعره وخباياه.

المبحث الثاني: نفي امرئ القيس وأثر ذلك في معلقته:

ولعل المؤثر الأول (طرده من بيت الملك) هو الأقوى تأثيراً في شخصيته وتوجيه شعره وقد ظهر أثره في معلقته في عدة مظاهر ولعل أبرزها عاطفة الحزن التي تبدو واضحة في معظم أبيات هذه القصيدة، فبداية بغزلكه الذي عده النقاد ودارسو الأدب بداية لما عرف- فيما بعد- بشعر الغزل اللاهي الذي ازدهر في عصر بني أمية، والذي اتصف شعراؤه بثقتهم القوية في أنفسهم حتى صوروا أنفسهم معشوقين و المرأة عاشقة لهم،(١٦) ولذا كانوا في عواطفهم بعيدين كل البعد عن الحزن والأسى بل تغمرهم عاطفة البهجة والفرح كما يظهروان من خلال قصائدهم ،

لما ينعمون به من كثرة المحبوبات وشدة تعلقهن بهم، وسعيهن الحثيث في سبيل الوصول إليهم. فإن شاركهم امرؤ القيس في إبداء تعلق المحبوبات به وكثرتهن – على نحو ما سيظهره هذا التحليل- إلا أنه خالفهم في غلبة عاطفة الحزن عليه في غزله والتي تبدو واضحةً في مثل قوله:

كَأنِّي غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا   لدى سَمُراتِ الحَيّ ناقِفُ حَنْظَلِ[١٧]

وُقُوفاً بها صَحْبِي عَليَّ مَطِيَّهُمْ   يقُولُونَ لا تَهْلِكْ أسَىً وَتَجَمَّلِ

وإنَّ شِفَائي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ   فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

وقوله أيضاً:

فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ منِّي صَبَابَةً عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مِحْمَلي[١٨]

وكذلك قوله:

أفاطِمُ، مهلاً، بعضَ هذا التَّدَلُّلِ   وإنْ كُنتِ قَدْ أزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلي[١٩]

أغَرَّكِ مني أنَّ حُبَّكِ قاتِلي   وأنَّك مها تَأمُرِي القلبَ يفْعَلِ

وَإنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ   فَسُلِّي ثِيَابي مِنْ ثيابكِ تَنْسُلِ

ومَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلا لتَضْرِبي   بسَهمَيْكِ في أعشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

فكيف يمكن تعليل حزن الشاعر على فراق محبوبة بإمكانه أن يستعيض عنها بغيرها من المحبوبات اللاتي يرغبن فيه كما يصور ذلك في كثيرٍ من شعره؟!. ربما لم يكن قصد الشاعر إلى أن يظهر حزنه في شعره الغزلي ولكنها طبيعة النفس الإنسانية الغلابة التي تأبى إلا أن تظهر على حقيقتها مهما حاول صاحبها أن يظهرها على غير مظهرها. وبالتالي فليس مصدر هذا الحزن كما يصوره امرؤ القيس تجاربه العاطفية والإباحية المزعومة، بل في الغالب أن مصدره هو مفارقته لذلك النعيم الذي طرد منه وتفريطه في تلك المكانة السامية والمنزلة الرفيعة التي يطمح إليها كل فتىً غيره، والتي كان من السهل أن ينعم بها في أكناف مملكة كندة بنجدٍ لولا إتباع الهوى وسلطان النفس.

فاستبدل – عن رغبة– الجحيم بالنعيم، والكفاف بالرغد، ليجد نفسه في أكنـاف صحراء قاسية يعاني فيها خشونة العيش وبؤسه، فـإن رضـي بعيـشه فـي الصحراء أول الأمر لحداثة سنه وحب المغامرة مع قلة تجاربه وضيق معرفتـه وتحكم هواه فيه، فهو الآن ربما تغير الأمر لديه لتقدم سنه وسعة معرفته وقـوة سلطان العقل فيه، ولما جربه من عيش الصحراء الذي ربما لم يكن يعلمه على حقيقته عندما أقدم عليه، ومن هنا وجد الحزن سبيله إلى كل شعره فلم يسلم منه حتى شعره الغزلي الذي ما كان له أن يصطبغ بتلك الصبغة لولا معاناة الشاعر النفسية.

ويلاحظ على أبياته الأربعة الأخيرة في غزله (أفاطم – وما ذرفت) أن عاطفة الحزن فيها قد بلغت أقصى مداها بل جاءت مصحوبةً بتذلل الشاعر وخضوعه لمحبوبته – مع اعترافه بذلك – إلى أبعد مدى لم يلف مثله فـي بقيـة شـعره الغزلي، إضافةً إلى ما في الأبيات من استرحام الشاعر لمحبوبته استرحاماً لا يتوقع من مثله، فهو استرحام الضعيف المنكسر أمام القوي. فما الذي جره إلـى كل ذلك؟! لا يكاد يوجد تعليلٌ لذلك سوى أنه عندما أراد أن يتغزل هذه المـرة غلبت عليه عاطفة حزنه من جراء تذكره سوء تصرف والده معه في صـغره، فتخيله أمامه ماثلاً، فتداخلت العاطفتان، عاطفته تجاه والـده وعاطفتـه تجـاه محبوبته فناجاها بما كان ينبغي أن يناجي به والده الملك فجـاءت كثيـرٌ مـن أساليب الخطاب صالحة لأن تكون خطاباً موجهاً من الشاعر إلى والده أكثر من صلاحيتها لأن تكون موجهةً لمحبوبته، ومن ذلك مثلاً قوله : (وإن كنـت قـد أزمعت صرمي فأجملي) ألا ترى أن والده الذي صرمه ولم يجمـل صـرمه أحق بهذا الخطاب من فاطمة إذ إنه لم يكن رفيقاً به في صغره بل كان قاسـياً في معاملته، وقد طرده وهو صغير ولم يتعقبه!فهو يرمي باللائمة علـى والـده الذي ضيعه صغيراً وحمله دمه كبيراً كما روي عنه.ولذا فهو لا يجد حرجاً في الاسترحام مادام يناجي والده بأن يجمل صرمه وأن يعالج أمره برفق. وكـذلك

قوله:

أغَـــرَّكِ مني أنَّ حُبَّـــكِ قاتِلي وأنَّكِ مها تَأمُـــرِي القلبَ يفعَــلِ[٢٠]

فهي عاطفة الابن الذي يميل قلبه إلى والده فيحببه رغم ما يبدر منه مــن شــدةٍ وعنفٍ تجاهه، فربما كان الشاعر يرى أن أباه ما فعل ذلك به إلا لثقته بأن ابنه لا يقدر على فراقه، ولذا فسيختار البقاء معه متخلياً عن لهوه ومجونه وكــذلك قوله الذي جاء أقرب إلى مناجاة والده من مناجاة محبوبته أيضاً:

وَإنْ تَكُ قَدْ سَـــاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَــةٌ فَسُـــلِّي ثِيَابي مِنْ ثيابِكِ تَنْسُــلِ[٢١]

فهو اعتراف واضح بسوء خلقه الذي ساء والده فدفعه إلى طرده وصرمه، وفي قوله(سلي ثيابي عن ثيابك) إشارة قريبة إلى حادثة طرده، وإلا كان الأولـــى أن يقول: (سلي ثيابك عن ثيابي) بمعنى ابتعدي عني إذا كان القــول موجهــاً حقيقةً إلى المحبوبة ، أما قوله هذا فيوحي بمعنى الطرد.

وهكذا لو أحللنا ضمير المخاطب المذكر محل ضمير المخاطب المؤنث في هذه الأبيات لما وجد ما يحول من توجيه الخطاب في معظمهـــا إلـــى حجــر والــد الشاعر. بل هو أولى به من عشيقة الشاعر، إذ ليس من المعهود أن يصور هذا الشاعر محبوبته مزمعة على صرمه وأن يصور نفسه خاضعة متذللة لها، وهو الذي اعتاد أن يصور نفسه معشوقاً محبوباً حتى لدى النساء الزاهدات في مودة الرجال يتحن له ما لا يتحن لغيره، وكيف يطالب الشاعر محبوبتــه أن تفارقــه بإحسان إن كان هو يحبها حقاً ؟! أليس الأولى أن يظهر تشبثه وتمسكه بهــا؟. وما هي تلك الخليقة التي ساءتها من الشاعر ولم يصرح بها ؟ ولم يعــد قــادراً على تركها أو التخلي عنها بل تجعل الشاعر مستسلماً لصرم محبوبتــه ؟. كــل ذلك يدعم القول بأن الشاعر امرأ القيس ربما أخفى مناجاته لوالده الملــك وراء مناجاته لمحبوبته في هذه الأبيات.

وتظهر عاطفة الشاعر الحزينة في عدة مواضع أخرى في القصيدة لا سيما في مناجاته الليل إذ يقول:

وليلٍ كَمَوْجِ البَّحْرِ أرْخَى سُـدُولَهُ عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليَبْتَــــلي[٢٢]

فَقُلْتُ لَهُ – لما تَمَطّى بصُـــلْبِهِ وأردفَ أعْجَازاً، وناءَ بِكَلْـــكَلِ-:

ألا أيُّها اللّيلُ الطَّويلُ ألا انْجَـــلي بصُبْحٍ وما الإصْباحُ مِنكَ بأمْثَـــلِ

فيا لكَ، مِنْ لَيْلٍ، كَأَنَّ نجومَــــهُ بأمْرَاسِ كِتّانٍ إلى صُـــمِّ جَنْـدَلِ

فأي هموم يبتلي بها ذلك الليل الطويل الشاعر الحزين؟ تلك الهموم التي لا تبرح صاحبها ليل نهار، هذي الهموم التي يبدو صاحبها عاجزاً عن مجابهتها فيتوسل لليل كي ينجلي عنه بصبح وإن لم يكن الإصباح بأحسن حالاً عنده من الليل؟ لا شك أنها همومٌ عظيمة، وهل هنالك هم أعظم عند الشاعر مما يعايشه من صراعٍ نفسي لفراقه ذلك النعيم وارتمائه في أحضان تلك الصحراء القاسية؟ هذه القسوة التي صورها الشاعر وعبر عنها في موضعٍ آخر من مواضع الحزن في هذه القصيدة ولا غرابة أن يورده عقب مناجاته الليل، فالحزن يولد الحزن، ذلك الموضع هو وصفه الذئب ومناجاته إذ يقول:

وواد، كَجَوفِ العَيْرِ قَفْراً قطعْتُـــهُ به الذئبُ يعْوِي كالخَلِيـــعِ المُعَــيَّلِ[٢٣]

فقلتُ لهُ لمَّا عَـوَى إنَّ شـــأنَنَا قليلُ الغنَى إنْ كُنْـتَ لمَّا تَمَـــوَّلِ

كِلانا إذا مَا نَـــالَ شَـيئاً أفَاتَـــهُ ومَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثِي وحَرْثَكَ يَهْـزِلِ

فقطعه الوادي المقفر، وملاقاته الذئب يمثلان جانباً من جوانب قسوة العيش التي يكابدها الشاعر في تلك الصحراء، يضافان إلى شدة ظلام ذلك الليل الذي وصفه من قبل، فقد ظهر الحزن واضحاً في قوله مناجياً الذئب : (كلانا إذا ما نال شيئاً أفات) لم يقل (مالاً) بل قال (شيئاً) وهي أعم، فأي شيء ناله الشاعر ثم فرط فيه ولم يحسن القيام عليه سوى نعومة العيش ورفاهيته في

كنف والده الملك؟! ذلك التفريط الذي أعقبه الندم الذي يحس من وراء قول الشاعر مناجياً الذئب أيضاً: (ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل).

هذا الحزن الذي يحسه الشاعر لم يكن حزناً صرفاً بل هو ممزوج حيناً بالندم، وحيناً بالإذلال، هذا الإحساس بالإذلال ظهرت ملامحه في هذه القصيدة في صورٍ متباينةٍ يمثل بعضها في ألفاظ القصيدة وبعضها الآخر في معانيها وصورها الخيالية، فمن حيث الألفاظ فقد كثرت الألفاظ الدالة على معنى الإذلال أو المشتقة من لفظ (ذل) مثل وصفه كاهله بأنه (ذلول) في قوله:

وقِرْبَةِ أَقْـــوامٍ جَعَلْــتُ عِصَامَها   على كاهِـــلٍ منِّي ذَلُــولٍ مُرَحَّلِ[٢٤]

وكذلك تشبيهه ساق محبوبته بأنبوب السقي المذلل:

وكَشْحٍ لطيفٍ كالجَدِيلِ مُخَصَّــرٍ   وساقٍ كأنْبوبِ السَّقِي المُذَلَّــلِ[٢٥]

وكذلك وصفه قلبه بأنه مقتَّل أي بمعنى مذلل:

ومَا ذَرَفَتْ عَيْــناكِ إلا لتَضْـــرِبي   بسَهمَيْكِ في أعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّـــلِ[٢٦]

وربما يكون الشاعر قد ساءل نفسه – أحياناً – عن سبب ما هو فيه من إحساس بهذا الحزن والإذلال فلم يجد سبباً سوى اتباعه ضلالته وعمايته اللتين أخفتا عنه الطريق السوي وزينتا له الباطل المعوج وأبدتاه له قويماً. ولذا كان تأثير إحساسه بما هو فيه من ضلالة وعماية واضحاً في القصيدة، فقد صرح بانصياعه لضلالته وعمايته في عدة مواضع في القصيدة منها قوله:

تسلَّتْ عَمَاياتُ الرِّجَالِ عَنِ الصِّبَــا   وليسَ فُؤادي عنْ هواها بِمُنْــسَلِ[٢٧]

ويصف نفسه بإفراطه في الغواية على لسان إحدى عشيقاته:

فَقَالَتْ: يمينَ اللهِ، ما لكَ حِيْــلَةٌ   وما إنْ أرَى عَنْكَ الغَوَايَةَ تَنْجَــلِي[٢٨]

وبما أن الحلم ضد الضلالة فهو يلتمس العذر لنفسه في اتباعه ضلالته في الهوى بأن جعل محبوبته قادرةً على إضلال الرجل الحليم:

إلى مثلِها يَرنُو الحليمُ صبَـــــــابَةً إذا ما اسبكَرّتْ بينَ دِرْعٍ ومِجْوَلِ[٢٩]

ولعل إحساس الشاعر بإفراطه في الضلالة واتباعه الهوى وما لحــق بــه مــن جراء ذلك قد جعله يفكر في سبل خلاصه، فكان انتهاجه ما يسميه علماء النفس بــ (الأساليب الدفاعية) -(انظر المصطلحات السيكولوجية السابقة فــي أول البحث)- وقد تمثلت في تطلعه أحياناً إلى الهداية عندما يفيــق عقلــه مــن ضلالته ويثوب إلى رشده، فيظهر تطلعه إلى الهداية في صورٍ عديدةٍ كما يبــدو في إيراده لصورة الراهب ومصباحه الذي يطرد الظلام إذ يرى فيه مثلاً أعلــى في الهداية؛ ولذا تتعلق نفسه بتلك الصورة العارضة على عقله فيستوحي منهــا تشبيهين لشيئين محببين إلى نفسه في هذه القصيدة، أولهما تشبيهه لوضاءة وجه المحبوبة بمصابيح الراهب:

تُضِيءُ الظلامَ بالعشـــــــاء، كأنَّها مَنَــــارَةُ مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّــلِ[٣٠]

وثانيهما تشبيهه للبرق المبشر بالخير بمصابيح الراهب:

أصَاحِ، تَرَى بَرْقاً أرِيْكَ وَمِيْضَــهُ كلَمْعِ اليَدَينِ في حَبِيٍّ مُكَلَّـــــلِ[٣١]

يُضيءُ سَناهُ أوْ مَصَابيحُ رَاهِـــبٍ أهانَ السَّلِيطَ بالذُّبَالِ الْمُفَتَّــلِ

مع ملاحظة ارتباط صورة الراهب في كلتا الصورتين بالإضـــاءة التــي تبــدد الظلام الذي هو رفيق الضلالة، ولعل إفراط الشاعر في إعجابه بالراهب جعلــه يشبه ضوء البرق بمصابيحه مع أن ضوء البــرق هــو الأقــوى مــن ضــوء المصباح، وأن المعهود أن تشبه الأشياء المضيئة بــالبرق لا أن يــشبه البــرق بها.ولعل شغف الشاعر بالضوء والإشراق جعله ينفر من الظلام، وينفــر مــن الليل إلى الإصباح مع أنهما سواء في ابتلائه بالهموم كما عبر عن ذلــك فــي الأبيات السابقة التي ناجى فيها الليل، وفي المقابل يكثــر مــن إيــراد الــصور المشرقة مثلما في وصفه الثريا وتشبيهها بالوشاح المفــصل وكليهمــا مــشرق مضيء:

إذا ما الثُّرَيَا في السَّـــمَاءِ تَعَرَّضَتْ* تَعَرُّضَ أَثْنَـــاءِ الوِشَـــاحِ المُفَصَّـــلِ[٣٢]

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نعلل حشده لكثيرٍ من الصور المفرحـــة والمــشرقة والجميلة في طيات هذه الموضوعات مستوحياً منها صوره الخيالية لا سيما التشبيهات، ولذا لم يقف عند إيراد تلك الصور فحسب بل أنه كثيراً ما شبه بهـــا أشياءه التي يصفها كذلك، مثل تشبهه شحم ناقته التي نحرها للعـــذارى بهـــداب الدمقس:

فَظَلَّ العَذَارَى يَرْتَمِـيْنَ بِلَحْمِـــــها وشَحْـــمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المفتَّلِ[٣٣]

وكذلك تشبيهه ترائب عشيقته بالمرآة في صفائها ووضاءتها:

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضاءُ غَيْرُ مُفاضَـــــــــةٍ تَرَائبُها مَصقُولةٌ كالسَّجَنْجَـــــلِ[٣٤]

وتشبيهه جانبي ظهر فرسه بمداك العروس:

كأنَّ على المَتْنَينِ منهُ إذا انْتَحَـــى * مَدَاكَ عَروسٍ أوْ صَلايةَ حنْظَـــــلِ[٣٥]

وتشبيهه بقر الوحش بالعذراى يطفن بصنم دوار حيناً ، وتشبيههن حال إدبارهن بالعقد المفصل بينه:

فَعَنَّ لنا سِرْبٌ كَأنَّ نِعَاجَـــــــــهُ عَذارَى دَوَارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّـــــــــلِ[٣٦]

فَأدْبَرْنَ كالجِــزْعِ الْمُفَصَّــلِ بَيْــنَهُ بجِيْــدِ مُعَمٍّ في العَشِيرَةَ مُخْــوَلِ

وهنا يلاحظ أن امرأ القيس لم يكتف بتشبيه البقر بالعقد المفصل بينه فحسب، بل جعله بجيد معم في العشيرة مخول، فما أجمل موقع هذه الــصورة فـــي نفـــس الشاعر إذ تذكره بطفولته الناعمة الهانئة، ومن يكون ذلك الطفل المعم المخـــول غير الشاعر نفسه ؟! فكأنه يعزي نفسه في بؤسها بتذكر أيام نعيمه في طفولته.

ومن الصور المفرحة ذات الوقع الطيب في نفس الشاعر أيضاً والتي كانت (رد فعل) لتلك الأحاسيس القاتمة في نفس الشاعر، والتي يجد فيها عزاءه وصـــفه

الطيور (مكاكي الجواء) حالة فرحها بالغيث وتخيله لها كأنهـا قـد صـبحت سلافاً من رحيق مفلفل:

كأنَّ مَكَاكِيَّ الجِواءِ غُـــــدَيَّةً   صُبِحْنَ سُلافَـاً مِنْ رَحِيْقٍ مُفَلْفَـلِ[٣٧]

فهذه الصورة الخيالية لا يعرف وقعها الطيب في النفس إلا من كان مثل الشاعر في إدمانه الخمر، ولن تتأتى إلا لمن جرب السلاف المفلفل مثله.

من الصور ذات الوقع الطيب أيضاً في نفس الشاعر التي ربمـا عـول عليهـا لطرد الإحساس بالحزن، تلك الصورة الرائعة التي رسمها الـشاعر لـصحراء الغبيط وقد كساها الغيث ثوباً أخضر مزدان بألوان الزهـر فـشبهها بعـرض التاجر اليماني لبضاعته التي هي الثياب الملونة:

وَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الغَبِيطِ بَعَـــاعَهُ * نُزُولَ اليَمَانِي، ذي العِيَابِ الْمُحَمَّـلِ[٣٨]

هذا الإحساس بالحزن والإذلال المتنامي في نفس الشاعر عنـدما يـصل إلـى ذروته يصعب وقعه عليه، ولذا فهو كثيراً ما يفر منه ملتمساً عزاءه الذي يـراه ماثلاً في الهروب إلى مثل هذه الصور المشرقة والمفرحة والجميلة التي أوردها في القصيدة، فهو يجد عزاءه في هروبه من واقعه النفسي الذي يعيشه وذلـك باسترساله في وصف الأشياء المحببة إليه كالفرس والـصيد حينـاً، ووصـف المطر حيناً آخر، بل أن تغزله نفسه يعد هروباً من واقعه الحزين، ولأجل ذلـك أصبح من الصعب بإمكان تحديد مناسبة واضحة لهذه القصيدة المعلقة، لأنها لم ترتبط بحادثة معينة كشأن بقية المعلقات الأخرى مثل معلقة زهير التي نظمهـا في مناسبة الصلح بين عبس وذبيان، أو معلقتي عمرو بن كلثوم والحارث بـن حلزة اللتين نظمتا في مناسبة التحاكم بين قبيلتيهما لدى الملك عمرو بـن هنـد، وكذلك بقية المعلقات سوى هذي؛ ما يرجح أن الشاعر امرأ القيس ما نظمها إلا هروباً من معاناته النفسية والتماساً للعزاء، ولذا أدارها حول هذه الموضـوعات الثلاثة الرئيسة وكلها محبب إلى نفسه، ولأجل هذا أطال فيها بل أنه جعل كـل أبيات القصيدة تدور حول هذه الموضوعات الثلاثة، غير ثمانية أبيـات تطـرق

فيها لعدة موضوعاتٍ أخرى.ومن صور العزاء التي عول عليها الشاعر امــرؤ القيس أيضاً في معلقته تخيله بعض الأشياء وكأنها تشاركه المعاناة مــن حــزنٍ وإذلالٍ مستشعراً بذلك أنه لم يكن وحده الذي يعاني وإنما يشاركه غيــره فــي المعاناة مما يخفف عليه وطأة الإحساس بها ولعل هذا ما يسميه علمــاء الــنفس بالأسقاط (Projection) ومن هنا لعل في تصوير امرىء القيس للذئب - فــي الأبيات السابقة - خير شاهد على ذلك فقد أسقط كــل معاناتــه الناجمــة مــن إحساسه بالإذلال وصعوبة العيش، والتفريط فيما لا يجب التفــريط فيــه علــى الذئب، لقد رأى الشاعر في صورة الذئب الذي وصفه صورةً مماثلة له، ولــذا أبدى تعاطفه معه، فهو إذ يصفه كأنه يحكي عن نفسه، ويكفي أنــه قــد شــبهه بالخليع وأي خليع يذكره الشاعر غير نفسه وأصحابه مــن الــصعاليك؟! فهــذا الذئب أحد صعاليك الصحراء يعاني مثلهم الجوع، ويشاركهم معانــاة العــيش، ولذا استرسل الشاعر في وصف معاناة الذئب قاصداً من وراء ذلك أن يــصف ما يعانيه هو نفسه، فأخبر بضمير الجمع عنه وعن الذئب، (شــأننا، كلانــا) ومثله في المعنى (حرثي وحرثك) . فكلاهما لا يغني ولن يصير ذا مــال أبداً، لأن كليهما مبذر لا يحسن التصرف في المال لأنه لا يقيم للمال وزناً. فمن أين أتى الشاعر بهذا الحكم؟!.

ومن الأمثلة الأخرى التي أسقط فيها الشاعر بعض معاناته علــى المخلوقــات الأخرى في هذه القصيدة أيضاً ما ورد في وصفه الأسود وقد غرقــت فــي السيل وتلطخت بالطين وتشبيهه لها بأجزاع البصل الطافية في الماء:

كأنّ السِّباعَ فيهِ غَرْقَى عَشِيــــــةً بِأرْجائِهِ القُصْوَى، أنَابِيشُ عُنْصُــلِ[٣٩]

لقد ذهب الشاعر بهذا التشبيه الغريب إلى أبعد مدى من الاســتخفاف بالأســود والاستهزاء بها حتى يجعلها في صورة أقــرب مــن صــورته فــي إحــساسه بالإذلال، وهل هنالك إذلال أشد مما يجعل الأسود ملوك الغــاب علــى قوتهــا وشجاعتها ومهابتها في حالة تشبه فيها بأجزاع البصل، لقد أفلح الشاعر في

اختيار الأسود بالذات لأسقاط هذه المعاناة عليها ولم يختر غيرها من الوحوش الأخرى كالضباع أو النمور أو الفهود أو الذئاب، لأن الأسود هي الأقرب إلى حاله في ماضيه وحاضره فكلاهما ملك أذله الدهر.

هذا الغيث الذي وصفه الشاعر كان مذلاً لكثير من المخلوقات، فكأنه قد رأى فيه صورة الدهر الذي أذله، فجعله مذلاً للأسود ومذلاً أيضاً للعصم (الأراوي – إناث التيوس الوحشية) إذ يقول:

ومَرَّ عَلَى القَنَانِ مِــنْ نَفَــيَانِهِ   فأنْزَلَ مِنْهُ العُصْمَ مِــنْ كُلِّ منْزِلِ[٤٠]

فقد أذلها بأن أنزلها من عليائها – ولعل الشاعر رأى في إنزالها من عليائها معنىً أبعد من معنى النزول الحقيقي ليجعلها أكثر قرباً منه، فقد جعلها شريكةً له في المعاناة فكلاهما قد أنزله الدهر من علياء مجده. كما تخيل الشاعر الغيث مذلاً للجبال أيضاً فهي رغم ما عرفت به من الضخامة والثبات تبدو اليوم في نظره كفلْكة المغزل:

كَأنَّ ذُرَا رَأسِ الْمُجَيْمِرِ غُــدْوَةً   من السَّيلِ وَالغُثَاءِ فَلْكَةُ مِغْــزَلِ[٤١]

ويطال إذلال الغيث بقية المخلوقات التي وصفها الشاعر فدوح الكنهبل مع عظمه يقتلع ويكب على أذقانه:

فَأضْحَى يَسُحُّ الماءَ حَــولَ كَتِيْفَةٍ   يَكُبُّ عَلَى الأذْقَانِ دَوْحَ الكَنَهْبَــلِ[٤٢]

وفى استعارة الأذقان للدوح تقريب أكثر لصورة الدوح الذليل من صورة الشاعر في معاناته. وكذلك تبدو صورة تيماء ذليلة أيضاً بفعل هذا الغيث الذي لم يترك بها جزع نخلة إلا اقتلعه ولا مبنىً غير مشيد بجندل إلا هدمه:

وتَيْمَاءَ، لم يَتْرُكْ بها جِذْعَ نَخْــلَةٍ   وَلا أُطُــماً، إلا مَشِــيْدَاً بجَنْــدَلِ[٤٣]

هذا الغيث لم يكن غيثاً مغيثاً إلا لنفس الشاعر وحدها تلك التي اشتدت عليها المعاناة من فرط الإحساس بإذلال الدهر لها، فأتى الغيث مطمئناً لها بأن الإذلال

لم يكن من نصيبها وحدها بل جعل كل هذه المخلوقات الأخرى تشاركها فيه.

من الأساليب التي عول عليها الشاعر امرؤ القيس أيضاً في طلبه العزاء وطرد الإحساس بالحزن والإذلال عن نفسه، أنه كثيراً ما عول على ذكر بعض مواقفه الماضية التي يحسبها نبيلة، معتداً فيها بشجاعته وكرمه. ولعل هذا ما يسميه علماء النفس بالتعويض (Compenstion) ومن هنا كان تعويض الشاعر امرىء القيس في ذكره بعض تلك المواقف الماضية التي يعتد بها، فمن مواقف الشجاعة التي اعتد بها مغامرته في سبيل الوصول إلى إحدى عشيقاته وقد وصفها بأنها لا يطمع أحدّ في الوصول إليها لأنها محروسة بحراس يحرصون على قتل كل من يقترب من خبائها وبخاصة الشاعر:

و بيضة ِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِبَاؤها   تَمَتّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بها غَيْرَ مُعجَلِ[٤٤]

تجاوزْتُ أحْراساً إلَيها ومَعْشَراً   عليّ حِراصاً لو يُسِرُّونَ مَقْتَلِي

كما يظهر اعتداده بشجاعته أيضاً في وصفه الذئب ومناجاته، وجعله من نفسه صنواً له في العيش والتفريط والتبذير كما سبق تفصيل ذلك.أما قوله:

فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ منّي صَبَابَةً   عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مِحْمَلِي[٤٥]

ففي قوله (محملي) إشارة إلي شجاعته وفروسيته فهو لا يفارقه سلاحه وإن أبدى ضعفه وانكساره أمام رسم دار محبوبته. ومن المواقف التي يبدو فيها اعتداده بكرمه وشهامته وتحمله الأعباء قوله :

وَقِرْبَةِ أَقْوامٍ جَعَلْتُ عِصَامَهَا   على كاهِلٍ منّي ذَلُولٍ مُرَحَّلِ[٤٦]

فالقربة هنا قد تكون حقيقية ويكون المعنى أن الشاعر قد حملها على كاهله المعود على حمل مثل هذه الأحمال، وقد تكون مجازية بمعنى (الأعباء) وهو أجود معنى، ففي هذا الموقف يسمو الشاعر بنفسه ليضعها في موضع أقرب من موضع الملك الحقيقي وليس الضليل، تعويضاً عما يشعر به من ضعف شأنه في الصحراء، واستشعاراً ولو لحين أنه ما زال في مكانته التي فرط فيها.

المبحث الثالث: بغض النساء لامرئ القيس وأثر ذلك في معلقته:

أما المؤثر الثاني في شخصية هذا الشاعر وهو بغض النساء له فيظهر أثره في معلقته في عدة مظاهر: فبداية ببنائها لعله مما يلفت النظر هذا الحيز الواسع الذي أتاحه الشاعر فيها لإيراد أخبار غزله ولهوه مع النساء، والذي يصعب أن يوصف بأنه تسوده عاطفة صادقة وأنه نابع من تجربةٍ عاطفيةٍ حقيقـة عاشـها الشاعر امرؤ القيس وكابد حرها، وإلا فكيف تفسر كثرة ذكر أسماء النساء في القصيدة نفسها في قوله:

كَدَأبِكَ مِنْ أمِّ الحُوَيْـرِثِ قَبْلَـها وَجَارَتِـهـا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأسَـلِ(٤٧)

وكذلك قوله:

ويومَ دَخَلْتُ الخِدْرَ، خِدْرَ عُنَيْـزَةٍ فقالتْ: لك الويلاتُ إنَّكَ مُرْجِـلِي(٤٨)

وقوله أيضاً:

أفاطِمُ، مهلاً، بعضَ هـذا التَّدَلُّلِ وإنْ كُنتِ قَدْ أزْمَعْتِ صَرْمِي فَأجْمِلِي(٤٩)

هذا بالإضافة إلى ذكر بعض المغامرات العاطفية في القصيدة نفسها .ولعله من المستبعد أن يكون الشاعر قد ذكر هذه الأسماء (أم الحـويرث، وأم الربـاب، وفاطمة، وعنيزة وغيرهن) على نهج الشعراء القدامى إذ يعمدون إلى ذلك من باب التضليل والتمويه فيوردون عدة أسماء للمحبوبة الواحدة تأدبـاً وحرصـاً عليها، فامرؤ القيس لم يكن سوى طالب متعة وقتية لا يؤمل في الزواج ممـن ذكر من النساء، ولذا فهو لم يكن له من الدوافع ما يدفعه إلى الحرص عليهن، كما أنه لم يكن من التأدب على القدر الذي يحتم عليه أن يخفي اسم من يحـب وهو الذي يحكي تجاربه الإباحية مع النساء- كما في هذه القـصيدة وغيرهـا- دون أدنى حياء ، ومن أمثلة ذلك قوله في هذه القصيدة:

فمِثِلكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضِـعٍ فألهيتُـها عَنْ ذِي تمائمَ مُحْـوِلِ(٥٠)

وكذلك قوله:

و بيضة خِــــدْرٍ لا يُرَامُ خِبَاؤها تَمَتّعْـــتُ مِنْ لَهْــوٍ بها غَيْرَ مُعجَلِ[51]

تجاوزْتُ أحْراسَــاً إلَيها ومَعْشَــراً عليّ حِراصَـــاً لو يُسِــرُّونَ مقْتَلي

إذا ما الثُّرَيَا في السَّــمَاءِ تَعَرَّضَتْ تَعَرُّضَ أثْنَــاءِ الوِشَــاحِ المُفَصَّــلِ

فَجِئْتُ وقَدْ نَضَّــتْ لنَوْمٍ ثِيَــابَهَا لَدَى السِّــتْرِ إلاَّ لِبْسَــةَ المُتَفَضّــلِ

فَقَالَتْ: يمينَ الله، ما لكَ حيْــلة وما إنْ أرَى عَنْكَ الغَوَايَةَ تَنْجَـلِي

خرجْتُ بها أمشي تَجُــرّ وَرَاءَنا على أثَرَيْنا ذَيْلَ مِــرْطٍ مُرَحَّــلِ

فلمَّا أجَزْنَا ساحةَ الحيِّ وانْتَحَــى بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي حِقَــافٍ عَقَنْقَلِ

هَصَرْتُ بِفودَي رَأسِــها فتَمَايَلَتْ علَيَّ هَضِيْمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ

كل ذلك يقود إلى أن هذا الشعر الغزلي في هذه القصيدة لم يكن مصدره تجربةً عاطفيةً واقعيةً وحقيقة عاشها الشاعر، استعرت نارها في قلبه فتلظى بهــا، أو ملأت عليه لبه فشغلته عن سواها، فغزله في كل هذه القــصيدة وغيرهــا مــن القصائد قد يكون أقرب إلى اللهو مما حدا بدارســي الأدب أن ينــصبوه رائــداً لشعر الغزل اللاهي في العصر الجاهلي ذلك الضرب من شعر الغــزل الــذي ازدهر في العصر الأموي في إقليم الحجاز، وأن يعدوا زعيمه الشاعر القرشي عمر بن أبي ربيعة تلميذاً لامرئ القيس، مقتفياً لأثره. وهنا يتبــادر الــسؤالان التاليان: ما الذي دفع الشاعر امرأ القيس إلى الإكثار من هذا الضرب من شعر الغزل مع التركيز على ذكر المغامرات العاطفية وكثرة العشيقات ؟ بدليل أنــه في معلقته وحدها أتاح لشعره الغزلي أكثر من نصف أبياتها. وهل كل ما سرده من حكايات ومغامرات عاطفية أو إباحية في معلقته وبقية شــعره مــن أرض الواقع أم من نسج الخيال ؟ فلعل الراجح أن معظم الذي يسرده مــن حكايــات غرامية لا يعدو أن يكون من نسج خياله الواسع الخصب. ولعل دافعه النفــسي إلى كل ذلك هو إحساسه القوي الإحباط الناتج من سوء علاقته بالمرأة (انظــر

تعريف الإحباط في المصطلحات السيكولوجية السابقة في صدر البحث)، ثم كان رد الفعل في نفسه أن لجأ الشاعر إلى ما يسميه علماء النفس بـ (التعويض) كما سبق تعريفه في المصطلحات السابقة، ولقد ضرب الدكتور حلمي المليجي مثالاً له يماثل إلى حدٍ بعيد حالة الشاعر امرىء القيس يقول: (إن دون جوان الذي كان يتباهى بعدد قلوب النساء التي حطمها قد اكتُشِفَ أن لديه نقصاً في الذكورة. فإذا كان الشخص مفرطاً دائماً في استجاباته في ناحيةٍ ما فابحث عن مشاعر النقص الخفية لديه). (٥٢) فامرؤ القيس لم يكن يعاني من نقصٍ في الذكورة بل كان يعاني من بغض النساء له، ومن هنا يبدو تأثير المؤثر الثاني (بغض النساء له) قوياً في شخصية هذا الشاعر، ولذا فهو دائماً يحاول أن يظهر ما يضاد ذلك فيظهر أنه محبوبٌ ومرغوبٌ لدى النساء، وأنه ذو حظ عظيم ووافر عندهن، وأنهن يتحن له من أنفسهن ما لا يتحن لغيره من الرجال، ولذا فهو دائماً يصور عشيقته من الزاهدات في الرجال ولكنها مع ذلك تميل إليه كل الميل، كما يبدو في قوله:

فمِثلِكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ فألهيتُها عَنْ ذِي تمائمَ مُحْوِلِ(٥٣)

والحبلى والمرضع كما ذكر الزوزني أقل النساء رغبةً في الرجال. وفوق ذلك يصور زيادة ميولهن إليه لما يجدنه من متعة معه فيصورهن منصرفات إليه عن أحب الأشياء إليهن لاسيما أطفالهن الصغار:

إذا ما بَكَى مِنْ خَلْفِها انْصَرَفَتْ لَهُ بِشِقٍّ وتَحتي شِقُّها لم يُحَوَّلِ(٥٤)

ويصور إعزاز إحداهن له بقولها أنه لا تجد حيلة إلى رده دون مبتغاه عندها:

فَقَالَتْ: يمينَ اللهِ، ما لكَ حِيلَةٌ وما إنْ أَرَى عَنْكَ الغَوَايَةَ تَنْجَلِي(٥٥)

وكما يصور شدة رغبتها فيه بتمايلها عليها:

هَصَرْتُ بِفودَي رَأسِها فَتَمَايَلَتْ عَليَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيّا المُخَلْخَلِ(٥٦)

وفي إحدى قصائده يفخر بأنه قادرٌ على أن يستميل النساء المتزوجات ويمنع

عرسه من أن تميل إلى أحد سواه:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي(٥٧)

كذبت لقد أصبي على المرء عرسه وأمنع عرسي أن يزن بها الخالي

ولعل ما حكاه هنا في البيت الثاني يعد تعويضاً عما أصابه من أثرٍ نفسي من حادثة زوجه أم جندب التي فضلت عليه علقمة في الشعر فطلقها فتزوجها علقمة. يقوي ذلك الزعم ما حكاه على لسان صاحبته (وأن لا يحسن اللهو أمثالي) فلا شك أن قولها هذا قد وقع من نفسه موقعاً مؤلماً، فهو الحقيقة التي يعانيها ويبذل جهده في محاولة إخفائها، ولكنها تأبى إلا أن تظهر من خلال أبياته أحياناً كما في قوله أيضاً:

وَإنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابي مِنْ ثيابِكِ تَنْسُلِ(٥٨)

ويأتي من هذا القبيل أيضاً (إظهار مقدرته على استمالة النساء) ما ذكره في تلك القصيدة من أنه استباح امرأةً متزوجةً وأنه قد أصبح معشوقاً لديها أكثر من زوجها الذي لم يخف غضبه وثورته لما علم بالأمر:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال(٥٩)

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أي إذلال

فأصبحت معشوقاً وبعلها غاضباً عليه القتام سيء الظن والبال

يغُط غطيط البكر شد خناقه ليقتلني والمرء ليس بقتال

فالشاعر امرؤ القيس يصور نفسه مرغوباً فيه إلى أبعد مدى عند النساء، والواقع المذكور ضد ذلك تماماً، وهكذا من هذا الباب يمكننا الدخول إلى بقية شعره الغزلي- في كل ديوانه- والسير في شعابه.ومن هنا يمكن القول أن شعر امرىء القيس لا ينبغي أن يدرس بمعزل عن دراسة شخصيته والجوانب المؤثرة فيها، ويشاركه في ذلك معظم الشعراء المطبوعين ما دام الشعر مصدره العاطفة التي تستوطن نفوسهم، أما الشعراء غير المطبوعين فلا يظهر تأثيرٌ لشخصياتهم في شعرهم لأنهم لا يصدرون شعرهم من عواطفهم الحقيقة بل من عواطف غيرهم من الشعراء السابقين الذين يقلدونهم.

خاتمة

لقد ألقت شخصية امرئ القيس بظلالها الكثيفة على شعره شأنه في ذلك شأن جميع الشعراء المطبوعين، فبانت آثارها في شعره ماثلة فيما يصرح به من ميول إلى اللهو والمغامرات العاطفية التي غالباً ما تنتهي بنيله أقصى ما يرنو إليه من محبوبته، وكذلك تصويره للمرأة عاشقةً له متهافتةً عليه وكل ذلك في ثوبٍ من الفخر ، وكأنه أراد بذلك أن يخفف على نفسه وقع ما يعانيه من بغض النساء له كما تروي ذلك كتب الأخبار والأدب.

وتبدو آثار شخصيته واضحةً أيضاً في عاطفة الحزن التي تكتنف معظم شعره ولعل ذلك مرجعه إلى مفارقته للنعيم الذي ترعرع فيه أيام طفولته ليقاسي شظف العيش مع صعاليك العرب في الصحراء وقد دفعه إحساسه بالحزن إلى التماس العزاء لنفسه فراح ينشد عزاءها في ارتياده وأدى الشعر واصفاً تلك المشاهد التي يحبها ومضفياً معاناته على كثيرٍ من مظاهر الحياة التي يصورها، وقد عول الباحث على بعض النظريات العلمية الحديثة التي تنضوي تحت علم نفس الشخصية.

الهوامش

١- نظريات الشخصية – د. محمد السيد عبد الرحمن- دار قباء للنشر- القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٩٨م ٥٥

٢- علم نفس الشخصية – د. حلمي المليجي- دار النهضة العربية – بيروت- الطبعة الأولى – ٢٠٠١م ١٤٢١هـ ٢٢٩

٣- علم نفس الشخصية ٨٥

٤- المدخل في علم النفس_ د. هاشم جاسم- بغداد ١٩٨٨م-١٤٠٨هـ ١٢٥

٥ – المصدر السابق ١٤٣

٦- المصدر السابق ١٢٥.

٧- المصدر السابق ١٢٥

٨- انظر كتاب الأدب الجاهلي- د. حمد النيل محمد الحسن- دار الرشد – الرياض- ١٤٢٦ه- ٢٠٠٦م -٤٠

٩- خزانة الأدب- أبو بكر علي بن عبد الله الحموي- دار الهلال – بيروت- الطبعة الأولى ١٩٨٧م ٤٢/٢

١٠- طبقات فحول الشعراء- محمد بن سلام الجمحي- تحقيق محمود محمد شاكر- دار المدني- جدة -بدون تاريخ ٥٢/١

١١- الأغاني – أبو الفرج الأصفهاني-دار الفكر – بيروت- الطبعة الثانية- بدون تاريخ ٣/ ١٤٠

١٢- المدخل في علم النفس ١٢٥.

١٣- الشعر والشعراء – أبو محمد عبد الله بن قتيبة الدينوري- تحقيق د. مفيد قميحة والأستاذ محمد أمين ضناوي – دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى- ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م ٤٢

١٤- العمدة في محاسن الشعر وآدابه – أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد- دار الجيل- بيروت- بدون تاريخ ٤٣/١

١٥- الشعر والشعراء ٥٢

١٦- تاريخ الأدب العربي –د.ر. بلاشير- ترجمة د. إبراهيم الكيلاني- دار الفكر العربي – دمشق- بيروت-١٩٩٨م-٨٧٤

١٧- شرح المعلقات السبع- أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني- دار الجيل- بيروت-٩

١٨- المصدر السابق ١٢

١٩- المصدر السابق ١٨

٢٠- المصدر السابق ١٩

٢١- المصدر السابق ١٩
٢٢- المصدر السابق ٣٤
٢٣- المصدر السابق ٣٨
٢٤- المصدر السابق ٣٧.
٢٥- المصدر السابق ٣٠
٢٦- المصدر السابق ٢٠
٢٧- المصدر السابق ٣٣
٢٨- المصدر السابق ٢٣
٢٩- المصدر السابق ٣٣
٣٠- المصدر السابق ٣٢
٣١- المصدر السابق ٥٠
٣٢- المصدر السابق ٢٠
٣٣- المصدر السابق ١٤
٣٤- المصدر السابق ٢٧
٣٥- المصدر السابق ٤٦
٣٦- المصدر السابق ٤٧
٣٧- المصدر السابق ٥٥
٣٨- المصدر السابق ٥٥
٣٩- شرح المعلقات السبع ٥٦
٤٠- المصدر السابق ٥٣
٤١- المصدر السابق ٥٤
٤٢- المصدر السابق ٥٢
٤٣- المصدر السابق ٥٣
٤٤- شرح المعلقات السبع ٢١
٤٥- المصدر السابق ١٢
٤٦- المصدر السابق ٣٧
٤٧- المصدر السابق ١١
٤٨- المصدر السابق ١٤
٤٩- المصدر السابق ١٨
٥٠- المصدر السابق ١٦

٥١- المصدر السابق ٢١

٥٢- علم نفس الشخصية ٨٦

٥٣- شرح المعلقات السبع١٦

٥٤- المصدر السابق ١٨

٥٥- المصدر السابق ٢٣

٥٦- المصدر السابق ٢٦

٥٧- شرح ديوان امرئ القيس – أبو جعفر النحاس- وزارة الثقافة الأردنية – ٢٠٠٢م ٥٠

٥٨- شرح المعلقات السبع١٩

المصادر والمراجع

١. الأغاني – أبو الفرج الأصفهاني–دار الفكر – بيروت– الطبعة الثانية– بدون تاريخ.

٢. الشعر والشعراء – أبو محمد عبد الله بن قتيبة الدينوري– تحقيق د. مفيد قميحة والأستاذ محمد أمين ضناوي – دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الأولى– ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م

٣. العمدة في محاسن الشعر وآدابه – أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني– تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد– دار الجيل– بيروت– بدون تاريخ.

٤. المدخل في علم النفس–الدكتور هاشم جاسم– بغداد ١٩٨٨م ١٤٠٨هـ

٥. تاريخ الأدب العربي –د.ر. بلاشير– ترجمة د. إبراهيم الكيلاني– دار الفكر العربي–دمشق–بيروت–١٩٩٨م

٦. خزانة الأدب– أبو بكر علي بن عبد الله الحموي– دار الهلال – بيروت– الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٧. شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات– أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري–المكتبة العصرية–بيروت–٢٠٠٤م–١٤٢٤هـ

٨. شرح القصائد العشر–الخطيب التبريزي–المكتبة العربية – حلب–تحقيق د. فخر الدين قباوة–١٩٦٩م–١٣٨٨هـ.

٩. شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها– أحمد بن الأمين الشنقيطي–دار الكتاب العربي– بيروت–١٩٩٤م–١٤١٤هـ.

١٠. شرح المعلقات السبع– أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني– دار الجيل– بيروت.

١١. شرح ديوان امرئ القيس – أبو جعفر النحاس– وزارة الثقافة الأردنية – ٢٠٠٢م.

١٢. طبقات فحول الشعراء– محمد بن سلام الجمحي– تحقيق محمود محمد شاكر– دار المدني–جدة –بدون تاريخ.

١٣. علم نفس الشخصية – د. حلمي المليجي– دار النهضة العربية – بيروت– الطبعة الأولى – ٢٠٠١م .

١٤. كتاب الأدب الجاهلي– د. حمد النيل محمد الحسن– دار الرشد – الرياض– ١٤٢٦هـ–٢٠٠٦م.

١٥. نظريات الشخصية – د. محمد السيد عبد الرحمن– دار قباء للنشر– القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٩٨م.